

قراءة فلسفية في واقعنا المعاصر

الآخر في مرآة الأنا  
من لعبة الاستعباد والامتلاك، إلى مفهوم الاعتراف  
الأب سليم دكاش اليسوعي

- ١ -

في أيام النزاعات، أيام الحروب السوداء، وكذلك في لعبة الاستعباد على مختلف وجوهها، لا بد أن يقفز إلى الواجهة واقع الأنا/الذات في مواجهة الآخر في معناه الإنساني. قد يكون من إيجابيات الحالات الصعبة، الشديدة القسوة، المدمرة للبشر والحجر، هو بروز «الغيرية» في أشكالها المتنوعة، المجردة، الخالصة، المتضاربة، المتناقضة، المتعاكسة. إنه بروز «الغيرية» و«الآخر» كمقولة ثابتة عالية تكن العالم، يختبرها الإنسان بذاته، على شيء من التفاوت في الوعي، كواقع مباشر، هنا والآن، ولا كأمر رديف هامشي، بل كواجب الوجود. إنه «الآخر».

- ٢ -

من هو هذا «الغير»؟ من هو الآخر؟ قد يشير السؤال، في مدنيتنا، الإحراج والقلق، والأفضل ألا يطرح هذا السؤال على السماع لأنه سؤال ثقيل، في حين أنه سؤال صحيح أصيل لا مفر منه في قاموس المدنيات. في خيالي، تتعدّد صور الآخر ووجوهه. من هذه الصور والوجوه اخترت الآتي:

- ٢٤٧ -

الأخر (أعني الإنسان) هو جسم، هو شيء من الأشياء في الكون، لا بد أن تُصيغَ إليه استطاعةٌ للإدراك، شبيهة باستطاعتي للفهم والإدراك. هذا الآخر لا يعنيني من قريب أو من بعيد إلا لأنه حالة مماثلة لحالي. هو حيوانٌ ناطقٌ كباقي الحيوانات الناطقة، له حقله ولي حقلي، على قدر ما أعطي لي وأعطي له. إنه رقم في جملة أرقام وعدد في سلسلة من الأعداد. ولأن الآخر هو الشيء (وَكَلِمَةٌ شَيْءٌ هِيَ مِنْ أَكْثَرِ الْكَلِمَاتِ عَمُومِيَّةً وَإِبْهَامًا فِي اللَّغَةِ)، فيصبح من الممكن امتلاكه امتلاك المتاع، كما يمتلك الإنسان الحلال من الأرض والمنزل والأموال والحيوان. وعملية الامتلاك، امتلاك الآخر، تقتضي التدجين العاطفي والسياسي والإيديولوجي (على اختلاف أبعاده). ووسائل التدجين أصبحت اليوم متطورة مكفولة، والهدف هو ألا تبقى مسافة بين الأنا والآخر، وأن يمسي (العملية تتم فصولها بين صباح ومساء) هذا الآخر موضعاً قريباً من يدي، أرمي فيه زبالي وقمامتي ومهملاتي، وأسقط عليه وفيه جهلي وخياناتي.

- ٣ -

إلى هذه الصورة تنضم صورة أخرى هي لوحة الآخر/العبد في مواجهة الآخر/السيد. هو الآخر/العبد الذي مُنعت عنه قدرة الاختيار (المحطة الأساسية في الإرادة)، كما مُنعت عنه الحررية الفعلية أو الحررية بالفعل والتحديد. فإرادة السيد هي التي تحدّد مضمون الحاضر والمستقبل وهي التي تقرّر فعلاً وتحديداً. فالإمكان الذي يتحوّل إلى فعل وتاريخ هو من حق السيد لا المسود، وحق التفكير والجدلية هو حق مُصان لذوي الإرادة المطلقة وأصحاب القبضة المنزلة.

- ٤ -

والآخر هو، بين صور المدينة الحاضرة، سالب الذات، الأنا، سارقها. هو يبدأ بتفريب الأنا عن ذاتها، أعني أنه يجرّتها جزئياً أو أكثر، فتحيا الأنا في حين مستديم إلى الصميم. هذا الآخر يقتنص فرصة ضعف الذات ووهنها وحاجتها إلى الجديد، فيخطف هذه الذات ليقولها في قلبه. ومصية الذات

هنا أن ضعفها ليس قضية عابرة أو أمراً هامشياً سطحياً، بل هو ضعف ملازم للصميم عينه. تحاول الذات، أكانت فردية أم طبقية أو مجتمعية، أن تتحرر من الآخر عندما تنفيه وتتجاهله، إلا أن ضعف الصميم يرميها ثانية في حضان الآخر أو أنها تحيا في حالة من التشنج لا يتيح لها الخلق أو الإبداع.

- ٥ -

والآخر هو أيضاً الصديق الحليف، إنما الحليف ضمن دائرة معينة محدودة، هي دائرة الطائفة أو القوم أو العشيرة أو القبيلة. الرابط الذي يشد الأنا إلى الآخر في هذه الدائرة هو أولاً رابط العصبية على مختلف مستوياتها وعناصرها كالدين والإثنية والانتمية واللغة والخطاب الإيديولوجي المتعلق على ذاته والممزوج بكأس العاطفية. وهو ثانياً رابط الخوف على المصير والمستقبل والمنجزات والتاريخ والكيان. وهو ثالثاً رابط العمل الحتمي من أجل استمرارية الدائرة كإطار تستطيع فيه الأنا مع حليفها، مع الآخر، أن تبني ذاتها وتحصنها وتجعلها قادرة على أن تعبر عن شيء من إمكاناتها. فلا خطاب لهذه الأنا إلا ضمن هذه الدائرة، أي أنها بحاجة إلى الآخر البيولوجي، لتضمن بقاءها ووجودها وتؤمن لنفسها الحماية. وهذه الأنا وهذا الآخر وضعا الشريعة اللازمة لاستمرارية البقاء، لا بل أنها حولاً الكلمة الحق إلى مجرد مدونة قانونية اجتماعية لضمان الحماية وتماسك الجماعة البيولوجية. وباسم الحماية والتماسك، نشأت الشفاعة الملائمة وثبتت الظواهر من دونية الطفل والامراة والانتقام والجريمة المخففة وعدم قدرة الفرد على الاستقلالية انسيية أو ارتفاعه إلى مرتبة الشخص. وأمام ضغط الجماعة، ضغط الأنا، يتحول الآخر الحليف إلى عاشق لفردانيته وإلى رافض على الدوام، إذ هو يعبر عن رغبته بالحرية في الرفض المطلق، في موقف يلتزم بالسلبية. هذا الآخر، في فرديته وموقفه الذي لا يقبل الاختزال، يضع الحجر الأساسي لمشروع نزاع مع الأنا التي ترفض العزلة ولا تنبل بأن يكون الآخر سبباً يؤدي إلى فرط التماسك وإضعاف طرق الحماية. العلاقة، علاقة الأنا بالآخر في هذا الإطار، تسودها الانفعالية العميقة على مستوى الجسد والروح والكلمة والحركة والعاطفة والوجه واليدين...

فهذه الانفعالية السائدة هي التي تستطيع، قبل غيرها، أن تعيد الآخر إلى «صوابه»، إلى أن يكون الضامن لاستمرار «الأنا».

- ٦ -

والآخر هو أيضًا العدو ذو الأسماء والصفات القبيحة المتعددة: هو الشيطان، هو الشيطان الأكبر، هو المستكبر، السرطان المنتشي الذي لا بد من اقتلعه جذريًا من الأرض والنفوس، هو القاهر المستقوي، الذي يهدد سلامة «الأنا» ومصيرها. في هذا الآخر بكلّيته يتجسد الشرّ، الذي يؤثر مادّيًا ومعنويًا في الأنا ويؤلمها ويمنعها من أن تتحقّق وتعبّر عن إمكانياتها كافة. هذا الآخر المهتد هو ضرورة وظيفيّة تمكّن الأنا من أن تفكر واقعها بليّاته مجتمعة، وتمكّنها أيضًا من أن تعلن على الملأ انتصاراتها، لا بل تتيح لها أن تعيش ما خفي من القدرات لتتنصر على ذاتها. وهذا الآخر، في بشاعته وبربريته وتجسيده للشرّ، يدفع الأنا إلى تسطير الملاحم والأساطير وإلى استنطاق الخيال بالمنجزات الرائعة الخارقة. ومن الطبيعيّ أن تصرّح الأنا، في هذا المجال، أنّ الانتصار على هذا الآخر المجسّد للشرّ هو انتصار الحقّ المطلق بعينه، هو انتصار صاحب العدل الأسمى بسيفه على أعدائه، بحيث إنّ الأنا تصبح وليدة هذا الحقّ وربيبته. هذا الآخر هو الجحيم بعينه، ونظيرته إلى الأنا هي نظرة جحيميّة، إذ هو يتخطف منها عالمها الحميم الذي كوّنته لها، عالم الأمومة والمياه البدائية، عالم تطابق الأنا مع ذاتها، عالم الطبيعة والرحم. والآخر الجحيميّ هذا هو المسؤول عن كلّ سيّئة وتخلّف ومرض، وعليه تقع تبعات التدهور والانحطاط.

- ٧ -

إلا أنّ هذا الآخر، على بشاعته، يلعب دور الساحر المغري الفاتن، فيغوي الأنا ويجذبها إليه جذبًا مغناطيسيًا بما لديه، في سلّه، من العجائب والغرائب والاختراعات على أنواعها. وما يستهوي الأنا في هذا السلّ هو من باب الإنتاج السريع للاستهلاك الذي يقضي حاجات الأنا ويسكّن الجوع

- ٢٥٠ -

والعطش وبشر اللذة الحاضرة العابرة، وهديئ كذلك العنف الرابض في القوى الغريزية. هذا الآخر الساحر يقف عند عتبة الانا متملقاً، يخاطب الميول والتزعات التي لم تقدر الانا على استملاكها وتطويرها وتمثيلها. وما أكثر هذه الميول والتزعات الدفينة الغامضة اللاواعية التي يعرفها الآخر المعركة الجليدة والتي يغدبها وينمبها الخطاب الأسطوريّ الفوقيّ وخوف الدجاجة على فراخها. مهمة هذا الآخر هو أن يجعل الانا تتلهى بالقشور وأن يحول أنظارها دوماً نحو الأطراف وأهوامش والفتات، فتغلو حضارة الانا هي حضارة الهامش، وعشي ثقافتها ثقافة عمياء، إذ إن الانا تصبح مقيلة بالالاعيب السحرية المثيرة، فتحيا على مستوى الخيال والمخيلة والأحلام والأبراج، بدل أن تعقل ذاتها وتبحث عن نقاط الارتكاز في صميم مركزها وعمق كيائها. إننا الانا التي ثلاثت رغبتها في البحث عن حقيقتها. أو قل إن رغبتها تحولت إلى ما هو دون الغريزة التي يجب إشباعها. الرغبة في الحرية والفرح والديمقراطية والسعادة والسلام سقطت في فخ الأوهام المستوردة. إننا الانا التي انخرس لسانها واندرت كلمتها، أمام لسان الآخر وكلمته، فارتدّت إلى الوراء ارتداد الكلام الأجوف، تُقنع نفسها بأن خطابها وقدرتها على الخطابة لم يموتا. إننا أنا الخطابة، لا أنا الإرادة والفكر والبناء. إننا الانا التي لا تعرف إلا التقليد طريقاً إلى العصر الذي تعيش فيه، تقليد الآخر وتقليد الأقدمين، وبين التقليد الأول والثاني طريق معبدة واسعة إلى الفشل الاكيد. والآخر، أمام المشهد، يتفرج، وفي الوقت عينه، يحلل شخصية المريض الذي توقفت بعض وظائفه عن العمل، ويصف الدواء تلر الدواء، ذي التركيب المتنوع المتعدد العناصر، من جهاز الراديو والحفنة الذهبية والمساعدات الاجتماعية والبوارج الحرية. إلا أن هذا كله يزيد مرض الانا مرضاً وسحر الآخر سحراً ويجعل حضور الطبيب حضوراً حتمياً ضرورياً مستديماً. دخلت الانا حضارة الاستهلاك من بابها الواسع: إننا حضارة الآخر التي تستهلكها، التي تجعلها رهينة.

- ٨ -

والآخر هو الذي دخل في لعبة التامح. محنة هذه الكلمة أنّها خرجت من الدائرة الروحية (حيث يكون الكلّ متسامحين ومحيون التامح كعامل

- ٢٥١ -

أساسي في الحياة الاجتماعية) إلى الدائرة السياسية، حيث أصبح التسامح تعبيرًا عن قدرة من يمتلك السلطة أن يسمح للآخرين بأن يعيشوا وفق معتقدتهم وتفكيرهم. من التسامح، كتمبير عن الاعتراف بواقع الآخر كواقع مختلف بذاته، سقطت «الأناء» في فخ الاصطدام بالآخر كأمر مخيف أو يثير الشبهة، فيتمّ القبول به، ولو مرحليًا، كأمر واقع، وفق شروط معينة لها صفة تشريعية نظامية أكانت فوقية أم وضعية. المهم هو السيطرة على هذا الآخر وإدارة وجوده بوجه من الوجوه حتى تتكفل الظروف والسنوات بإيجاد حلٍّ لمصيره. كأن وجود هذا الآخر هو وجود بالخطأ فيأتي التسامح حلًّا مؤقتًا لمشكلته.

- ٩ -

وورطة الآخر العظيم تكون في التعميم والتذويب. أنا هو أنت ولا نجاة للآخر، كواقع معنوي أو كأمر واقع، إلا في أن يذوب. الأنا، في حالتها اللاواعية، أكانت فردية أم جماعية، تنزع نزوعًا إلى امتلاك الآخر وتذويبه. إنه نزوع أعمى، (لا تكسر عماه إلا الوصية)، إلى تذويب الآخر بوسيلة من الوسائل البشرية، من اليدين إلى القدم إلى العينين وصولاً إلى الدماغ. إنه اختزال الأنا/الآخر، الأنا/أنت، الأنا/هو في عمومية الأنا. الأنا/الأم، البُد، الأمة، القصب، القبيلة، الجماعة...

- ١٠ -

واقع الأنا/الآخر (أنت/هو) لا يستقيم وجوده:  
في علاقة تهدف إلى الاختزال،  
في إضافة تنزع إلى التعميم والتذويب،  
في نسبة ترمي إلى الاستبعاد أو الاستبعاد،  
في صلة تقود إلى التجانب السلبي،

ففي البدء كانت العلاقة. والعلاقة الحق تستقيم وجوديًا عندما تخرج الأنا من المنأ والآن إلى حالة تكون واعية فيها لذاتها، هي تلك النقطة انفصل التي تشعر فيها الأنا الشعور الوجودي بأن لا وجود لها لذاتها إلا من خلال

- ٢٥٢ -

اعترافها بوجود الآخر لذاته . وهذا الاعتراف هو فعل رغبة ، هو فعل كلمة تبدأ بتعريف الأنا من نزعتها العمياء إلى العيش في حالة الاغتراب عن الآخر ومن نزعتها إلى امتلاكه . فالأنا ، على سبيل المثال ، لا حرّية لذاتها ومن أجل ذاتها إلا إذا اعترفت بحرّية الآخر . فالأنا تصبح الحدّ الأوسط الذي به يتحقّق الآخر أنه موجود لذاته ومن أجل ذاته ، والآخر هو كذلك الحدّ الأوسط الذي به يتحقّق الأنا أنّها موجودة لذاتها ومن أجل ذاتها . وهكذا يعترف كلّ واحد منهما أمام الآخر بأنّ الأنا تعترف بالآخر والآخر يعترف بالأنا . فالأنا الناضجة الواعية لذاتها لا وجود لها إلا من خلال الآخر الذي يعترف بها . ويمكن في هذا الإطار أن تتبادل الأدوار : فالأنا قد تكون في موقع الآخر ، وكذلك قد يكون الآخر في موقع الأنا .

العلاقة هي الشراكة الحقّ في تبادل الاعتراف بأنّ الحياة هي عطاء .

صَدَرَ عن دار المشرق

Bibliotheca Arabica Scholasticorum

مكتبة الفلاسفة العرب

لموريس بويج اليسوعي

○ ابن رشد، تلخيص كتاب المقولات،  
طبعة ثانية، ٢٢٦ صفحة، ١٩٨٤

○ الفارابي، رسالة في العقل،  
طبعة ثانية، ٢٢٦ صفحة، ١٩٨٤

○ ابن رشد، تفسير ما بعد الطبيعة،  
في أربعة مجلدات، طبعة ثالثة، ٢٣٣٢ ص، ١٩٨٩

○ ابن رشد، كتاب تهاقت التهاقت،  
طبعة ثانية، ٦٨٠ صفحة، ١٩٨٧